٩٢/٩/٤/٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

الفكر العربي

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل
الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير
د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان
ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

حوار مع إيف لاكوست

حاوره: د. محمد حمود
وغسان زيادة

ايف لاكوست كان في بيروت، حيث القى محاضرتين، ولاكوست جغرافيٌّ لديه مجموعة من المؤلفات؛ في هذا الميدان. وقد عُرف باهتمامه بمشاكل وقضايا العالم الثالث من وجهة نظر الجغرافي؛ كما عُرف من خلال كتابه عن **ابن خلدون**. بالإضافة إلى ذلك، فقد عاش لفترة من الزمن في المغرب حيث ولد. من هنا لم يكن غريباً أن يأتي إلى بيروت لإلقاء محاضرتين، وللتحضير لعددٍ خاص حول الشرق الاوسط في المجلة التي يشرف عليها « هيرودوت ».

وهنا لقاء مع لاكوست حول مسائل تتعلق بالعالم الثالث والاستشراق.

ـ لا نودّ تكرار نفس الأسئلة وبالطريقة ذاتها. لقد أجري معك حوارٌ في صحيفة يومية، ولقد تحدثت عن مسائل كثيرة. نودّ ها هنا طرح مسائل اخرى، سوف نبدأ بسؤال يتعلق بالطلبة العرب الذين يدرسون في فرنسا، أو في أوروبا عامة، والذين يضمون أطروحات في العلوم الانسانية (علم اجتماع، انتروبولوجيا، الخ)، وفي معظم الأحوال؛ فإنّ هذه الأطروحات تقوم على دراسات ميدانية، حول حالةٍ معينة وخاصة (قرية، حي، شارع الخ...). إنهم يحاولون تعميم الحالة الخاصة. ألا تعتقد بأنّ هذه الدراسات تفتقر إلى البعد النظري، أو إلى الأرضية النظرية التي تسمح بامتلاك منهج تحليل؟

جواب: بالحقيقة، هذا السؤال مُهمٌّ للغاية. ولكنْ للإجابة بشكل بنّاء أكثر، لا بدَّ، كما اعتقد من طرحه بشكل أوسع. إن المسألة تطرح ليس فقط، بالنسبة للطلبة العرب، أو اللبنانيين، ولكن بالنسبة لكل الطلاب. حول مسائل العالم الثالث، هناك منشورات كثيرة، نشرت منذ حوالى عشرين سنة. وأكثر هذه المنشورات، وهذه الكتب، تبحث العالم الثالث في عموميته. وأنا لا أريد القول بأنه ليست هناك دراسات محدَّدة، حول حالة محدَّدة، ولكني أُريدُ أن أقول إنّ هذه الدراسات الميدانية كان لها شهرة أقل؛ وكان لديها محمل محلّي؛ علماً بأنّ مشاكل العالم الثالث كانت قد طرحت على مستوى كثير الاندفاع في التجريد. أي، بتعبير آخر، كان يتم الاخذ بعين الاعتبار للمشاكل المشتركة بين عددٍ كبيرٍ من بلدان العالم الثالث؛ ويتم ترك ما يمكن أن يكون لكلّ من هذه البلدان من خصوصية، على حدة. وبنتيجة ذلك، لدينا عددٌ كبيرٌ من الرؤى العامّة، وهؤلاء الطلاب، وعدد كبير من الباحثين يعتقدون بأنّ الواقع ينطبق على هذه الصورة العامة. إنها مشكلة كبيرة، لأن الواقع في أكثر الاحيان، هو شيء آخر مختلف عن الصورة " مة. وفي العشرين سنة الأخيرة، يمكننا الاستنتاج بأنه كان هناك تمييز أكثر اندفاعاً، وهذا التمييز يتعلق بالأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. إن تمييزاً من هذا النوع، كان يوجد سابقاً، ولكنّ النظرة

الأخرى حول هذه المواضيع، فيؤكد على أهمية أبحاث كل من كيتاني وبيكر وليمنس وغيرهم، الذين ركّزوا على الأرضية الدنيوية للاسلام، وتأثيره القوي على إنتاج الثقافة المادية والروحية للشعوب التي اعتنقته، في كلٍّ من آسيا وافريقيا الشمالية[٩]. بيد أن برتولد كشف الجوانب غير العلمية والخطرة في أبحاث الأب الفرنسي المستشرق ليمنس، الذي حاول ـ من خلال تركيزه على العامل الجغرافي والتغيرات المناخية التي تطرأ على البنية ـ أن يثبت بعض الأفكار العنصرية، كتلك التي تقول بخمول العقل الشرقي الاسلامي، وبحبه وتعلقه بالتقاليد والافكار الموروثة منذ القدم، وبعدم قدرة الانسان القاطن في مناخ الصحارى الحار على الخلق والإبداع. فأثبت أنه، مع توسع العرب وازدهار تجارتهم، اخترعوا العديد من النظريات العلمية في الكيمياء والجبر وعلم الملاحة البحرية وغيرها... فاجتيازهم البحار والصحارى، حملهم على أن يجيدوا معرفة الجغرافية الفلكية. فلقد اخترعوا المراصد الأولى في العالم، في كل من سمرقند ودمشق وبغداد والقاهرة. وفي الوقت الذي تطوَّر علم الجغرافية الفلكية (لاحظ العلامة ابن خلدون)، كان النصارى في أوروبا عاجزين عن تعويم خشبة في بحر الروم. وفي معرض تحليله ونقده للدراسات الاسلاماتية في الغرب يخلص برتولد إلى القول: «من الضرورة بمكان تركيز الانتباه على كل الظواهر الثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها، فهي، إلى جانب الأسس الدينية للحضارة الاسلامية، حدّدت وتحدِّد الجوهر الفعلي للحياة الشرقية ولطموحات ومُثُل أبرز شخصيات الاسلام»[١٠].

بعد عام (١٩١٦)، انصرف برتولد لتأليف كتيِّبات علمية مبسطة عن الاسلام والحضارة العربية. ففي عام (١٩١٨)، أصدر كتيِّبه الأول «**الاسلام**»، الذي يقع في (٦٠ صفحة) من الحجم المتوسط. وتلاه كتابه الهام الذي عنونه بـ «**الحضارة الاسلامية**»، وبعده صدر كتاب «**عالم الاسلام**»؛ هذه الكتب الثلاثة، لخَّصت وكثَّفت معلوماته وتجربته الاكاديمية في الدراسات الاسلاماتية. وما زالت حتى الآن ترتدي أهمية علمية ملحوظة. ولقد جمعت هذه الكتب، إلى جانب مقالات وتعليقات أخرى، تقويم أبحاث أهم المفكرين وللمستشرقين الذين تناولوا تاريخ الحضارة العربية ـ الاسلامية، جُمعت كلها في المجلد السادس من مؤلفاته التسع.

في كتابه «الاسلام»، يعطي برتولد صورة بانورامية عن الأسباب والحيثيات التاريخية التي رافقت ظهور الاسلام وانتشاره، ويحلِّل فيه البنية الايديولوجية للإسلام، كشكل من أشكال الوعي الشرق أوسطي للحياة، وطرح علاقة الانسان بالكون وبأهم عوامل تكونه وتطوره. كما أنه يجري مقارنة ثقافية عامة بين خصائص الوعي الاجتماعي الشرق أوسطي، وبين الحياة الثقافية والروحية لاوروبا، وذلك منذ القرن السابع وحتى أوائل القرن العشرين. هذا، وفي معرض مناقشته للعلاقة بين الشرق والغرب، يرد برتولد على أفكار الشاعر الاوروبي **كيبلنغ** القائل: **الشرق شرق، والغرب غرب. أبداً لا ولن يلتقيا**[١١].

هذا الموضوع الذي طُرح على مر العصور، كان موضع نقاش حاد بين الفلاسفة والمؤرخين ورجالات الفن.

وعلى الرغم من التأكيد دائماً على أن الالتقاء والتفاعل كان موجوداً دائماً بين حضارات العالم أجمع، فكل ثقافة أغنت الأخرى وأضافت إلى ما تبعها إسهامات جديدة في كل أنواع الفنون والعلوم، على الرغم من هذا، ما زال سائداً ـ كما يشير برتولد ـ الاتجاه الذي يحتكر لنفسه أحادية تأسيس الحضارة وقيادتها، هذا الذي يهيمن على تفكير معظم الذين يكتبون عن تاريخ الحضارات في اوروبا. فيبين برتولد: «أن الشرق القديم ترك آثاره القوية على الثقافة الاغريقية؛ والثقافة الاغريقية التقت وأثّرت على الحضارة العربية ـ الاسلامية؛ والحضارة العربية ـ الاسلامية ساهمت في إرساء أهم معالم النهضة الاوروبية. فالاسلام، أظهر خلال قرون بأنه محب للحرية، منادٍ بالأخوة والعدالة. صحيح أن في الاسلام، كما هو الحال في التلمود والعهدين القديم والجديد، الكثير من التعالم التي لا تتطابق مع بعض منجزات العلم، وتعيق أحياناً التقدم الاجتماعي؛ بيد أن الاسلام، كفوء ـ كما أثبت في الماضي ـ بأن يتأقلم مع الظروف الجديدة»[١٢].

في كتاب «الاسلام»، يحلّل هذا الدين ليس في إطار النظرية فقط ـ فلم يجرد «الفكرة» عن الواقع ـ بل إنه حاول أن يستقرىء الأفكار الاسلامية المجسَّدة على أرض واقع الشعوب الاسلامية. فهذه المحاولة، كانت الأولى من نوعها في الدراسات الاسلاماتية الاوروبية. لذلك، أمامنا عمل جديد أحدث تحوُّلاً نوعياً في الدراسات الاسلامية، فلقد وضع البداية العلمية الجدية لأبحاث موضوعية لاحقة. وعلى حد قول الاكاديمي **كراتشوفسكي** «إن الوقائع الجديدة التي طلع بها برتولد في كتاباته عن الاسلام، تشكّل ظاهرة جديدة في تحليل هذا الموضوع. وهي إن دلت على شيء، إنما تدل على سعة معلومات هذا العالم، وعلى تعمُّقه في دراسة الاسلام، بعد اعتماده على المصادر الأصلية؛ وهذا ما يعطي للعمل إنجازات إيجابية لم تصل إليها اوروبا حتى الآن»[١٣].

أمّا حول اسلوبه في هذا الكتاب، فيتميَّز بالرصانة العلمية والعذوبة في سرد الافكار وتسلسلها. فكل كلمة في مكانها الطبيعي، وكل فكرة تؤدي معناها بشكل دقيق. ويشير بهذا الصدد كراتشكوفسكي: «إن كل جملة عند برتولد لها معنى محدّد. وكل فكرة يمكن النظر إليها كاستنتاج علمي موثوق به»[١٤].

ما هي السمات المميّزة لبرتولد، التي جعلته يدخل باب الدراسات الاسلاماتية العالمية من موقع العالم الموثوق به؟

لعل الجواب على هذه التساؤل يكمن بالتزامه الصارم بمبدأ التاريخية في العلم، وبعدم ارتكازه على الدراسات الغربية الأخرى. فهناك العديد من الباحثين لا يكلّفون أنفسهم عناء التنقيب عن المراجع الأصلية، فيأخذون عن أسلافهم ما كتب عن هذا الموضوع أو ذاك؛ وإذا كان السلف قد طلع باستنتاجات غير علمية، فتتكرَّر عند خلفه. وهكذا، تتحوَّل الحقائق التاريخية إلى ستريوتيبات. والستريوبيبات مع تكرارها عند أكثر من باحث، تكاد تتحوّل إلى قناعات ثابتة في ذهن الرأي العام، ممّا يشكّل في النهاية عائقاً جديداً أمام الوصول إلى الحقيقة

العلمية، وأمام انفتاح إنساني متكافىء بين ثقافات الشعوب، بين حاضرها ومستقبلها. أمَّا برتولد، فلقد تميَّز عن معظم الذين عاصروه. إذ إنه كان يعتبر المراجع الأصلية في لغاتها الأصلية، المادة الوثائقية الأولى، ليبني على أساسها تحليلاته واستنتاجاته. درس في كتابة «الاسلام» كل العوامل التي أدّت إلى انتشار هذه الظاهرة، التي أضحت ترتدي طابعاً عالمياً، وقارن هذه القفزة النوعية الجديدة في تاريخ شعوب الشرق مع الحضارات التي كانت قبلها والتي رافقتها في أوروبا والصين. ويؤكد، بالاعتماد على الوقائع التاريخية، بأن العلاقة بين أوروبا والعالم الاسلامي لم تنقطع أبداً، فلقد كان للحضارة الاسلامية الدور الأهم في التأثير على اوروبا القروسطية. إن الأمانة للتأريخ، والتأكيد على حقائقه ووقائعه، كانت السمة المميزة الظاهرة في كتابه «الاسلام»؛ غير أنه تنبغي الإشارة إلى أن الكتاب لم يدخل في تحليل الدين الاسلامي من الداخل، فلم يتناول كافة شُعبه ومِلله. فلقد أعطى لوحة موضوعية شمولية عامة، وهي المحاولة الأولى كما ذكرنا، في تاريخ الدراسات الاسلامية في روسيا، وحتى في الاتحاد السوفياتي.

استمر برتولد في هذا المنهج في كتابه «**الحضارة الاسلامية**»، فالمهمة المطروحة أمام هذا الكتاب، كانت أشمل من المحاولة السابقة، فهي الدراسة الثانية حول هذا الموضوع، بعد كرومير الذي أعطى تصوُّراً مركزياً أوروبياً عن تاريخ الحضارة الاسلامية. فالمادة الوثائقية القليلة من مخطوطات وأثار أركيولوجية، إلى جانب منهج كرومير الذي جاء ليخدم السياسة الانكليزية في منطقة الشرق الأوسط، أعطى لأبحاثه صفة متميزة للثقافة الغربية، التي كوَّنت تصوُّرات مشوَّهة غير واقعية عن تاريخ الشرق عامة. والبحث الآخر، الذي قام به المستشرق الالماني المعروف **ميتس**(١٤ مكرر)، انحصر في منطقة ضيِّقة، شملت مرحلة تاريخية محددة، وركزت على مسألة صحة أو خطأ إطلاق صفة «النهضة» على مجمل معالم الحياة الثقافية والعلمية في القرن العاشر. أمَّا دراسات **هيل** الالماني أيضاً، فقد كانت محصورة في إطار تاريخ الاركيولوجية(١٥). لذلك، فإذا شكّل برأينا كتاب برتولد «الاسلام» نقطة البداية الصحيحة في دراسة هذا الموضوع، فإن كتابه الثاني «الحضارة الاسلامية» طوَّر هذه البداية ليؤسس حجر الزاوية السليم في الدراسات العلمية، حول نشوء وتطور الحضارة الاسلامية، وتفاعلها مع ما سلفها وما عاصرها.

ففي مقدمة هذا الكتاب، يتناول الاكاديمي برتولد الستريوتيبات المشوَّهة، التي تكدَّست على مر العصور حول كفاءة هذا الشعب أو هذه المنطقة في صنع التقدم والحضارة، وحول ثبات التخلف، وعجز شعب آخر أو منطقة جغرافية أخرى في دفع عجلة التقدم إلى الأمام. فيتناول هذه الكليشيهات من عصر الفيلسوف اليوناني أرسطو، الذي كان يعتقد بأن الاغريق وحدهم دون غيرهم من الشعوب الأوروبية قادرون على صنع التقدُّم الحضاري. بينما شعوب اوروبا الباردة تتميز بالركود الدائم؛ وعلى حد قول الفيلسوف اليوناني، فآسيا والقسم الشرق ـ أوسطي

بخاصة، يتميّز بالقدرة على الإبداع وعلى صنع الحضارات العريقة. مع التأكيد على وجود حضارات عريقة ما زالت تدهش العالم في كل من اليونان والشرق الاوسط، يبيّن برتولد خطأ فكرة أرسطو البعيدة عن الرؤية العلمانية التاريخية. فيشير إلى حضارة روما وبيزنطة اللتين خلقتا الحضارة اليونانية، وأعطتا نموذجاً جديداً قيّماً من الثقافة

إلى حضارة روما وبيزنطة اللتين خلقتا الحضارة اليونانية، وأعطتا نموذجاً جديداً قيّماً من الثقافة المادية والروحية. وجاءت بعدهما الحضارة العربية ـ الاسلامية التي تفاعلت مع تراث إيران الثقافي، ومع حضارة بيزنطة، واستطاعت أن تضيف مساهمات جديدة في العلوم والفنون، تركت تأثيرها على مجمل مسيرة التقدم الانساني. فالحضارة، في تاريخ تكوّنها وتطوّرها، لم تتمركز أو تتمحور لا في اوروبا ولا في آسيا في كل الازمان. فلكل عصر خصائصه وإفرازاته. ويخلص إلى القول «بأن العلم أثبت أن السبب الأساسي المحرّك للتقدّم أو للتخلف، للتفاعل والإغناء المتبادل بين الشعوب أو للركود وانهيار الحضارات، لا يرجع إلى الخصائص العرقية أو الدينية ولا إلى الظروف الطبيعية، بل إلى مجمل الظروف العيانية المكانية والتاريخية التي رافقت حياة هذا الشعب أو ذاك. فإن تقدّم اوروبا على غيرها ما كان يحصل، لولا تراكم مجموعة من العوامل التاريخية السابقة، ولولا تفاعلها وتأثرها بالشعوب والأمم الاخرى. وإن تقدم الاسلام وانتشاره ما كان ليحصل أيضاً لولا تفاعله مع المسيحية، ومع التراث الثقافي لشعوب الشرقين الأدنى والأوسط. يضاف إلى ذلك عنصر هام، وهو أن كل مرحلة تاريخية كان يتحكّم فيها هذا الطرف أو ذاك بالمفاصل الأساسية للتجارة العالمية كانت تزدهر فيه معالم التقدم. وأوروبا لم تحتل المرتبة الأولى في التقدّم الاجتماعي، لو لم تتحكّم بالمفاصل والقطاعات الأساسية للتجارة العالمية»(١١٥) .

وفي دراسته هذه عن الحضارة الاسلامية، يبيّن برتولد بأن التقدم استمر في كافة الميادين، حتى بعد ضعف سلطة الخلافة. فبعد القرن الحادي عشر يبين كيف أن إيران، التي حملت لواء الاسلام، تابعت التقاليد الإيجابية في تلك الحضارة، وذلك ابتداء من القرن الخامس عشر؛ وتجدر الاشارة إلى أن الفترة التي امتدت من القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر، لم تدرس حتى الآن دراسة دقيقة وعميقة. فمع تطور حركة الاستشراق منذ أوائل القرن السابع عشر، كتابة الآلاف من الأبحاث والدراسات التي فيها الكثير من الستريوتيبات المشوّهة عن الشرق، بدأ الشرق والمثقّف الشرقي ينظر إلى شرقه وواقعه بعين غريبة. والذي يؤسف له، أنه حتى الآن لم تتوفّر لا المخطوطات الأصلية لتلك المرحلة، ولا الكوادر العلمية الكفؤة، الشرقية والغربية، التي تتناول تلك المرحلة بالبحث والتحليل والاستنتاج. كما أن وجود مفكرين نزيهين، أمثال برتولد وغيره، لم يولوا تلك الفترة أي اهتمام ملحوظ. فهذه الفجوة الكبيرة، ما زالت غامضة لدى معظم الباحثين وبالتالي القراء؛ والشيء المتداول عليه، أن الشرق الاسلامي غرق منذ القرن الخامس عشر في سبات عميق... بيد أن بعض الدراسات الغربية والسوفياتية، ومنها أبحاث المؤرخة السوفياتية سمالينسكيا تؤكد على أن نمواً ديموغرافياً واقتصادياً وثقافياً حصل

تساعد أولاً في الحرب، ولكني لم أقل فقط في إعلان الحرب.

ـ هل قرأت كتاب أدوار سعيد حول « الاستشراق » ؟

جواب: لا لم أقرأ هذا الكتاب. ولكني كنت قد قرأت عرضاً له في مكان ما. أعتقد انه يضعني في خانة المستشرقين هو الآخر. ولنعد إلى الاستشراق. اعتقد أنه كانت هناك مرحلتان، في البداية، كان الاستشراق يسعى لضمان الهيمنة والسيادة، أمّا فيما بعد فلقد كان هناك وعي بالغبن اللاحق بالآخر، واعتقد أنّ النظرة قد تغيرت.

ـ لماذا لا يَتم ترجمة أدبيات الفكر العربي الحديث إلى الفرنسية. هل الامر يتعلق بنقص ما، أم أن المسألة تتعلق بعدم تقييم لهذا الفكر؟

جواب: أنت على حق، ولكني أعتقد أن غياب الترجمة يعود إلى أسباب تقنية. واليوم في فرنسا، لا تتم سوى ترجمة الانكلو ـ ساكسونيين، لاسباب تتعلق بالسوق. ذلك انه يتم اعتبار هؤلاء متفوقين.

ـ لقد قضيت ردحاً من الزمن في المغرب، بالاضافة إلى اهتمامك بالعالم العربي، هل تعتبر أنّ هناك مفهومين مختلفين في العالم العربي: المغرب والمشرق؟

جواب: نعم، هناك جزآن، والدول مختلفة جداً بين المغرب والمشرق. ولكن الاختلاف الاكبر هو ذلك الذي تحول إلى مسألة سياسية. فدول المغرب، هي دول متشابهة على المستوى الديني، فهم مالكيون باستثناء نواة صغيرة من الأباضية في مزاب والجبل الاخضر. إذاً هناك نوعٌ من الوحدة الكاملة، وهذا هو الاختلاف الكبير مع المشرق. وقبل المرحلة الاستعمارية كانت هناك وحدةٌ اقتصاديةٌ واجتماعية في المغرب مع الأهمية الملحوظة للتشكلات القبلية التي هي عبارةٌ عن تنظيمات.

لقد عرف المشرق دولاً كبرى، مع الامويين والعباسيين، حيث كان هناك جهاز دولة قوي وكبير مع تشكلات بيروقراطية.

وهناك مسألة هامة جداً، وهي مسألة الخلاف الكبير بين المشرق والمغرب، ذلك ان حدود الدول في المغرب، هي قديمة جداً. إن حدود الجزائر الحالية، هي حدود مملكة « مسينا » التي قامت بالحرب ضد قرطاجة. ونفس الملاحظة يمكن أن نجدها في تونس. حتى فيما بعد، وتحت الهيمنة التركية، كان هناك نوع من الحدود. ونجد في المقابل، أن حدود الدول في المشرق حديثة جداً.

وهناك مسألة أخرى، وهي العلاقة الراهنة بين المغرب وأوروبا. أعتقد أن هذه العلاقة هي قوية للغاية. هناك مثقفون وعمال من دول المغرب يعيشون في فرنسا. وأعتقد أنّ المثقفين يشعرون بالانزعاج عندما يعودون إلى بلادهم. وهناك مغاربة يشاركون في النقابات، كما يشاركون في الاتحادات الطلابية. واعتقد أن العلاقات التعليمية والثقافية قوية.